الكتابة والتأليف في العصرين الجاهلي والإسلامي

بقلم
الدكتورة السيدة راحيلة خالد قريشي[1]

إن الكتابة هي صناعة شريفة، وهي آلة الحضارة التي تسجل بها المواثيق والعهود، وبها تعالج قضايا الناس الاجتماعية، وأنها من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرى البشر، والتاريخ يبين لنا أن الإنسان فكر في هذه الصناعة منذ أيامه الأولى، فإنه قضى الزمن يأكل ويشرب، ويتكلم، ولكنه لا يستطيع أن يكتب، ولما اتسعت علاقاته بأبناء جنسه، وكثرت أسفاره للاسترزاق، وازدادت حوائجه لتسجي أعماله، ومعاملاته، احتاج إلى الكتابة لتقييد ملاحظاته، ومواثيقه، وتدوين حوادثه ووقائعه، فعهد إلى الطرق البدائية لكتابتها، واخترع الكتابة الصورية، واستخدام الصور لتعبير أفكاره فالدور الصوري الذاتي [2] هو أول خطوة نحو الكتابة، وأبسطها أدوارا، ولكنه وجد هذه الطريقة عاجزة عن تعبير مشاعره، إذ أن هناك معاني لا صورة لها في الخارج كالحب، والبغض، واليوم والغد، فكل هذا اضطره

---

[1] – أستاذة مساعدة بقسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية ببهاولبور الباكستانية.

[2] – جرجي زيدان، الفلسفة اللغوية، والألفاظ العربية، ص١٦٠، مراجعة د. مراد كامل القاهرة ١٨٨٦م.

إلـــى الـــرموز، وكانـــت هي خطوة ثانية إلى الكتابة يسميها علماء اللغة "الدور الصوري الرمزي [١] رمز فيه الإنسان عن المحبة بالحمامة، وعن البغض بالحية، وعن اليوم برسم الشمس في أعلى دائرة، ثم أوجد الإنسان الكتابة المقطعية، وأخذ صورة الشيء للدلالة على أول مقطع من اسمه كاستخدام صورة العدو للدلالة على أول مقطـــع مـــن "عـــدو" وهو العين، واستخدام رسم السفينة للدلالة على السين المفـــتوحة والـــشجرة علـــى الشين المفتوحة [٢]، وكان إيجاد الكتابة المقطعية هو خطـــوة كبرى في اختراع الكتابة، وبدأ بعد ذلك الدور الهجائي، لما سعى الإنسان إلـــى الجذور الأساسية للكلمات والألفاظ حتى نجح في عمله هذا، وأصبحت بسعيه تلك المقاطع التي أوجدها حروفا، فالأدوار التي مرت بها الكتابة قبل وصولها إلى نحو ما هي عليه الآن أربعة [٣].

١- الدور الصوري الذاتي.

٢- الدور الصوري الرمزي.

٣- الدور المقطعي.

٤- الدور الهجائي.

فالكـــتابة مـــرت بمـــراحل وأطوار متعددة من الأعداد والتمهيد حتى ضبطت العلـــوم، ودونـــت الكتب، وتلك الكتب أصبحت المصادر اللغوية والأدبية فيما بعد. وأنهـــا لم تظهر فجأة، ولا بد لها من وسائل التدوين من أهمها الكتابة اللغوية، ثم أدوات الكتابة [٤].

---

[١]- نفس المصدر ص ١٦١.

[٢]- المرجع السبابق.

[٣]- المرجع السابق.

[٤]-المرجع السابق.

أمـــا العـــرب فهـــم الشعب الذي عرف الكتابة ومارسها بزمان طويل قبل الإســـلام، ولم يكن العربي أميا في العصر الجاهلي، والتاريخ يذكر لنا أن لهم كيان مستقل، وأنهم أنشأوا دولا مستقلة في أرض العرب وتركوا أثارا كثيرة منها، وهذه الآثار تدل على عظم ذلك الكيان وحضارتهم الرائعة منها دولهم في اليمن، وتدمر والحيرة، وفي وسط الجزيرة (دولة الكندة) فذكر أن شمر بن اقليفش الحميري (و هـــو الذي سميت "سمرقند" باسمه" إذ كان غزاها بخمس مائة ألف فهدمها، فقالوا "شـــمر كـــند" أي شمر هدمها، ثم وصل إليها ملك تبع "الأقرن بن أبي مالك" فأمر بعمارتها [1]، فمن الطبيعي أن تكون لهذه الدول مواثيقها وعهودها، وكانت هي ذات صلة وثيقة مع الدول الأخرى مثل الأحباش، والفرس والروم، ولكن المؤرخين من المستـــشرقين وأذنـــابهم عـــندما يكتـــبون عن الكتابة في العصر الجاهلي خاصة، يـــضعون العلل، والأسباب ليصوروا القارئ أن العرب تبع لغيرهم في وضع الخط والكـــتابة العربية، وما العربية إلا لهجة من اللهجات السامية، ويرجحون الرواية الـــشفوية في انتشار العشر الجاهلي فيقول الدكتور بلاشير وهو يقلل شأن التدوين في ذلك العصر [2].

"لا شـــك فـــي أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا الكتابة، وبعض القصائد الهامة، ولكن ذلك يعوزه الدليل حتى ولو سلمنا بصحة وقوع ذلك،

---

[1] –قيل وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوه بذكره في المنصب الرفيع، حين قال ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾، فأقسم بالقلم بما يخط بالقلم، وقيل"القلم" أحد اللسانين وهو المخاطب للغيوب، بسرائر القلوب على لغات مختلفة، وقال ابن المقفع" "القلم بريد القلب، يخبر بالخير ينظر بلا نظر، وقال الجاحظ الدواة منهل والقلم ماتح، والكتاب عطن، أحمد الهاشمي جواهر الأدب في الأدبيات وإنشاء لغة العرب ١/٣٣٥، سنة ١٣٧٠هـــ، ١٩٥١م.

[2] – أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري المعارف ص ٦٢٩، سنة ١٩٨٧م بيروت.

فإن التدوين لم يشمل إلا جزءا من آثار الشعراء الحضريين، أما البقية فقد سارت فـــي الصحراء عن طريق الرواية الشفوية، وأنها وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية".

على رغم ذلك نرى أن معظم المصادر اتفقت على انتشار الكتابة العربية في كل ناحية من نواحي الأرض العربية فتعلموها ونشروها، وبسبب هذا ورد في كتب الأخـــبار والتراجم والتواريخ ذكر الكتابة والكتاب والصحيفة، والمهارق، والألواح وغيرها من أدوات الكتابة.

قـــال د. عبد الحكيم بلبع [1] انتشارها في الأوساط المتحضرة والمبتدئة فيها الـــسواء، ويذكـــر لنا الجاحظ في كتابه "الحيوان" ما يدل على أن العرب الجاهليين عرفوا الكتابة واستخدموها لأغراضهم فقال:

"لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك، وكل أقطاع وكل اتفاق وكل أمان وكل عهد....".

ولـــو رجعنا إلى دواوين شعراء الجاهليين لوجدناها حافلة بما ذلك مثلا قال "عنترة بن شداد العبسى"[2].

وفرضت للناس الكتابة فاحتذوا

فيها مثالك والعلوم فرائض

وإذا خططت فأنت غيث معشب

وإذا حبست فأنت برق وامض

وقال عبيد بن الأبرص [1]

---

[1]- بلا شير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني ص ١٢٠، دمشق ١٩٧٣م.

[2]-أبو عثمان عمرو بن الجاحظ الحيوان، ٦٩/١، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـــ، سنة ١٩٦٩م.

تعرف أمس من لميس الطلل

مثل الكتاب الدارس الأحول

وقال يصف القلم [٢]

له عنق مثل جذع السحوق

والأذن مصعنة كالقلم

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة [٣]

يوخر فيوضع في كل كتاب فيدخر

ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وقال المرقش الأكبر في فاتحة قصيدته المشهورة [٤]

الدار قفر والرسوم كما

رقش في ظهر الأديم قلم

وقد أشار ناصر الدين الأسد إلى ما كان لدى دغفل النسابة من دواوين شعر الجاهلية وإلى واقعة جمع النعمان بن المنذر (ملك الحيرة) للعشر العربي في الجاهلية وتدوينه فإنه أمر بجمعها فنسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس، ثم دفنها في قصره الأبيض، روى أن الزباء كتبت إلى جذيمة وهو ببقة على شاطئ الفرات تدعوه إليها، وهو كتب إليها أيضا [٥].

---

[١]- د. الصولي أدب الكتاب ص ٢٤٥، تحقيق محمد بهت الأزدي مصر سنة ١٣٤١هـ

[٢]- د. ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي ص ٩٤ إلى ٩٩، الطبعة الثالثة مصر سنة ١٩٦٦م.

[٣]- نفس المصدر.

[٤]- نفس المصدر مصنعة منصوبة محددة والسحوق الطويلة من النخل.

[٥]- زهير بن أبي سلمى، ديوان ابن أبي سلمى ص ١٨ تحقيق فخر الدين قباوة دار الأفاق الجديدة بيروت.

وروى أيضا عدي بن زيد كان يعرف الكتابة، وقد ترك كتبا في التاريخ اعتمد عليها المسعودي المؤرخ وقال عنه الجاحظ [1]، كان نصرانيا ديا ناو ترجمانا وصاحب كتب وكان من دهاة أهل ذلك العصر".

وإلى جانب هذا نجد أسماء كثيرين من الكهنة والأطباء والمترجمين، وأسماء الأسواق الأدبية التي كانوا يقيمونها في مواضع مختلفة من تلك الجزيرة مثلا في دومة الجندل، وسوق الحجر بالبحرين، وعمان، ثم المشفر ثم صحار بالشحر وعكاظ على عدد أشهر السنة، وكان يسود على تلك الأسواق، من أخلاق عالية، وروح إنسانية رائعة، كل ذلك يدل على حضارة إنسانية وتطور ملحوظ في حياة الناس، ومن هذا نستطيع أن نحكم أن الأمة العربية عرفت الكتابة، وكان هذا قد انتشر هذا الفن في كافة أنحاء الجزيرة وهي من أهم مظهر من مظاهر حضارتهم.

وكذلك كان للعهود والمواثيق حظا وافرا في تطور الكتابة في العصر الجاهلين فإنهم كتبوا بعض أغراض تجارية، وأخرى سياسية، وتشيع هذا الفن في مكة خاصة، لأنها كانت مركزا تجاريا هاما عظيما، والتجارة تحتاج إلى الكتابة، ويحدثنا الجاحظ [2]، إنهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة "المهارق"، وقال الحارث بن حلزة مشيرا بها إلى ما كتب من عهود بين بكرو تغلب [3].

واذكروا حلف ذي المجاز وماق

دم فيه العهود والكفلاء

---

[1]- المفضل الضبي المفضليات ص ٢٣٧، الطبعة الرابعة مصر، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام شاكر.

[2]- رقش أي زين وحسن والأديم الجلد.

[3]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي ص ١٦٢، دار المعارف مصر ١٩٥٦م.

حذر الجور والتعدي وهل ين

قض ما في المهارق الأهواء

ومن آثارهم الأمثال والحكم اشتهر لدى العرب منذ العصر الجاهلي عدد كبير من الحكماء أشهرهم لقمان الحكيم، وقد أشار ابن هشام إلى صحيفة حملها سويد بن بالصامت قال فيها الدكتور شوقي ضيف [1]. إنما الذي نستطيع أن ندعيه لهم حقا، عن طريق الوثائق الصحيحة هو الأمثال فقد أكثروا من ضربها وهناك كتب مشهورة تتخصص ببحثها".

ويرى الباحثون أن تاريخ اللغة والكتابة وهو قديم جدا، ولكن تختلف أراءهم حول نشأة الخط وأصوله، ومصادره، فمنهم من يرى أن اللغة والخط توفيقا من الله تعالى، علمه آدم منذ بداية الخلق، وهذه هي نظرية ابن فارس التي عرضها في كتابه "الصاحبي" [2].

ومنهم من يرى أن تاريخه يرجع إلى عهد آدم فيقول ابن عبد ربه [3]:

" إن أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب آدم" قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبه في الطين، ثم طبخه، فلما انقضى ما كان أصابه الأرض من الغرق، وجد كل قوم كتابهم فكتبوه، وكان إسماعيل وجد كتاب العرب، وما زال

---

[1]- الزباء وهي ملكة تدمر ببادية الشام في القرن الثالث الميلادي، وقد رويت قصتها في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي، (الأغاني ١٦/٧٥، وابن الأثير ١/ ٢٤٧، طبع ليدن) إن رأي الدكتور شوقي ضيف إن الروايات التي رويت عن هشام بن محمد الكلبي ليست معتمدة لأنه متهم في ما يرويه (الفنّ ومذاهبه ص ١٧، دار المعارف المصرية).

[2]- أبو عثمان عمرو بن الجاحظ الحيوان ٤/٩٧، طبعة الحلبي، وحنا الفاخوري، الجديد في الأدب العربي ص ٤٠٩.

[3]- نفس المرجع السابق.

إسماعيل بعده يشتقون الكلام بعضه عن بعض، ووضعوا للأشياء أسماء كثيرة، بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها".

ويقول ابن النديم [1] في أولية الخط العربي:

"اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي فيقولون:

"إن أول من وضع الكتاب هم نفيس ونصرو وتيماء ودومة هؤلاء ولد إسماعيل وضعوه مفصلا وفرقه قادورين بن هميسع بن قادور".

وفي "الفهرست" رواية أخرى [2] التي تذكر لنا أن الستة هم الذين وضعوا الخط العربي وهم أبجد وهوز وحطى، وكلمن وسعفص وقرشت هم قوم من الجبلة الأخرى، وكانوا نزولا عند عدنان بن أدد، وهم من طسم وجديس، وأنهم وضعوا الكتب على أسماءهم، فلما وجدوا حروفا في الألفاظ ليست ألحقوها بها، وسموها الروادف وهي التاء والخاء والدال والظاء والشين والغين.... .

وقد نقلت في العقد الفريد [3] رواية ابن عباس أنه قال:

" أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان وهي قبيلة سكنوا الأنبار، وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة وهي مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فأما عامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأ/ا عامر فوضع الإعجام".

فمن الأنبار على حد قولهم انتشرت الكتابة في العرب فروى [4]:

---

[1]- الدكتور شوقي ضيف الفن ومذاهبه، ص ٢٠، وقيل ليس يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق، وأمان، (الحيوان ٧/١ بيروت.

[2]- المرجع السابق.

[3]- ابن فارس الصاحبي في فقه اللغة ص ٧، المكتبة السلفية ١٩١٥م.

[4]- المصدر السابق.

" لما سئل القريش من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا: من الأنبار وقيل [1]، أول من كتب بالعربية إسماعيل، وأن نفيسا ونصرا وتيماء ودومة أبناءه وضعوا كتابا واحدا، وجعلوه سطرا واحدا، موصول الحرف كلها غير المتفرق، ثم فرقة نبت وهيسع وقيل هميسع، وقيذار وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر".

وتشير الرواية الأخرى [2]، إلى رجل اسمه بشر بن عبد الملك الذي كان يعلم خط أهل الأنبار اسمه الجزم، وتعلمه من مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، ثم خرج إلى مكة حيث تزوج الصهباء بنت حرب، أخت أبي سفيان بن حرب، وعلم أبا سفيان ورجالا من أهل مكة ذلك الخط، كل هذه الروايات وأمثالها التي وردت في المصادر الأدبية القديمة، تحدثنا أن العرب اهتموا بالكتابة منذ أقدم العصور فعالجوها ووضعوها، وأنهم كانوا يدونون بقلم ظهر في اليمين بصورة خاصة وهو القلم الذي سماه الرواة (القلم المسند)، أو قلم حمير، وأن للخط العربي قلمان هما الجزم والمسند، المسند هو خط العربية الجنوبية، والجزم هو خط أهل مكة ومدينة وعرب العراق.

قال ابن خلدون عن الخط الحميري [3]:

"كان الخط العربي بالغا مبالغة من الاتقان والجودة في دولة المتابعة، لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها دولة آل المنذر ومن الحيرة لقنه أهل الطائف والقريش".

---

[1] – ابن عبد ربه العقد الفريد ٤/٢١١، بيروت الجمهورية اللبنانية سنة ١٣٨٤م.

[2] – ابن النديم محمد بن إسحاق، الفهرست الكلام على القلم الحميري ص ١٣، ١٤، وقد رويت هذه الأسماء في العقد الفريد بقليل من الاختلاف وهو أنهم نفيس ونصر، وأتيما، بنو إسماعيل بن إبراهيم وضعوه متصل الحروف بعضها ببعض حتى فرقه قادور وهميسع، وقيذر...العقد ٤/٢١٢).

[3] – الفهرست ص ١٢، ١٣.

وكتب شوقي ضيف [1]:

"عرف عرب الجنوب بخطهم المسند، ومنها نشأ الخط الحبشي، وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهي اللحيانية والثمودية والصفوية".

فالكتابة العربية كانت منتشرة انتشارا لا بأس به في تلك العصور القديمة في مواضع كثيرة من الجزيرة خاصة المواضع الحضرية، وإن وضعه كان أصلا ولم يتأثر العرب بغيرها في ذلك، كما رأى بعض المستشرقين وأتباعهم.

فيقول الدكتور عز الدين [2]:

" وحجج المستشرقين ومن تابعهم في أن الخط العربي إنما كان تقليدا للخط الآرامي، بدليل ما اكتشف من نصوص في أرض الشام حجج لا يمكن الاطمئنان إليها لمجرد التشابه بين الخطين، في أنها كتب بحروف متصلة والروايات تحدثنا أن الخط العربي وضع منفصلا ومتصلا" وزاد عليه بقوله [3]:

" أن خط الجزم قد تطور عن الخط الحميري وهو الذي كان يكتب بالحروف المتصلة، فالكتابة العربية كانت متواصلة في مناطق الجزيرة العربية".

وفي الرواية الأخرى:

" إن حروف الكتابة العربية كانت قد أخذت شكلها منذ الجاهلية الثانية على أقل تقدير، وأن إعجام بعض هذه الحروف للتميز بين متشابها، كان معروفا

---

[1]- لا يتفق الدكتور عز الدين إسماعيل، بهذين الخبرين اللذين يرويهما ابن النديم في كتابه الفهرست و يقول أنها غير مطمئن، ولا سيما ما في الخبر الثاني من إشارة إلى وضع الأعاجم منذ البداية، وفي رايه مشكلة الإعجام تشكل قضية قائمة بذاتها في تاريخ الخط العربي) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ص ٣١، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٥م.

[2]- ابن عبد ربه العقد الفريد ٢١٢/٤.

[3]- ابن قتيبة عيون الأخبار ٢٣/١، الكتاب والكتابة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ ، ١٩٥٢م.

ومستخدما في نطاق ضيق منذ صدر الإسلام، ثم حدث توسع فيه منذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري مع إضافة نظام الشكل (الفتحة والكسرة، والضمة، والتنوين) بضبط اللغة وتحاشي اللحن" [1].

يتضح مما تقدم أن الكتابة العربية كانت منتشرة انتشارا لا بأس به في تلك العصور السحيقة في القدم في مواضع كثيرة في الجزيرة العربية خاصة المواضع الحضرية، وإنها كانت متواصلة في مناطق الجزيرة العربية، واستقرت على ما هي عليه، ولم يدخل التطور في هجائيتها أوائلها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه قبل ظهور الدعوة الإسلامية، فوحدها الإسلام، ونشرها عليه من غير أن يغير صورة حروفها أو عددها أو ترتيب هجائها يدل به أيضا أنها مرت بعصور طويلة تطورت فيها، وأخذت شكلها النهائي، وكان في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، عند ظهور الإسلام قرابة ثلاثين كاتبا، والكتابة اللغوية كانت معروفة في العصر الجاهلي والإسلامي، وكان العرب يستعملون الأدوات اللازمة لها، في مقدمها الورق وأشياء كثيرة ...الخ [2]، وكانت الكتابة اللغوية سبب مهم للتدوين، ومن الدارسين من يكاد ينفي تدوين العرب قبل الإسلام شيئا من معارفهم كما يقول بعضهم [3].

" لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة، وعلوم مسجلة، فقد غلبت عليهم البداوة، واستغرق حياتهم التنقل، ففشت فيهم الأمية، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من

---

[1]- الدكتور جواد علي، المفصل في أحوال العرب قبل الإسلام ١٥٢/٨، بيروت سنة ١٩٧١م.

[2]- الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب ص ٣٨، الطبعة السابعة، دار المعارف المصرية سنة ١٩٩٣م.

[3]- العلامة ابن خلدون المقدمة ص ٤١٨، المكتبة التجارية بمكة المكرمة عام١٩٨٠م.

دور حضاري حتى أن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشماليها، حيث توجد الأحجار والصخور".

ولكن من العلماء من أشار إلى بعض مدوناتهم مثلا قد أشار السيد ناصر الدين الأسد [١]، إلى ما كان لدى دغفل النسابة من دواوين شعر جاهلية، وذكر أيضا واقعة جمع النعمان بن المنذر ملك الحيرة للشعر العربي في الجاهلية، وتدوينه وذكر رواية ابن الكلبي عما أفاده من أسفار الحيرة ونقوش كنائسها، وما كان فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم، وذكر قول شاعر جاهلي [٢]، فيه إشارة إلى كتاب "بني تميم" في الجاهلية وانتهى إلى قوله "أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها، وحكم حكمائها، وأقوال خطبائها، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب" [٣].

وتوجد في كتب التاريخ والتراجم ذكر بعض المدونات التي تنسب إلى العصر الجاهلي، مثلا يبدو أن يبع الحيرة وكنائسها في عهد المناذرة كانت مليئة بالسجلات والمدونات، فقد ذكر الطبري [٤]:

" أن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة، واشتهر عند الجاهليين منذ العصر الجاهلي عدد من الحكماء،

---

[١]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، ص ٣٣، طبع دار المعارف المصرية سنة ١٩٦٠م.

[٢]- د. عز الدين المصادر اللغوية والأدبية ص ٣٤.

[٣]- قال هذه النقوش بالرغم من كونها كتبت بالخط المعيني الجنوبي فخصائصها اللغوية قريبة من الخصائص اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم وهو يروي بحوالة طريقة تعلم الكتابة د. أنيس قريحة ص ٧٨.

[٤]- المصادر الأدبية واللغوية ص ١٤.

فكانوا ينهجون نهجا ويذكرون بنهج حكماء الشرق الأدنى القديم، فكان الحكيم عندهم هو الرجل المثقف عنده ثقافة جامعة لشتى ألوان المعرفة، وكان بعض الحكماء العرب يورثون الحكمة أبناءهم" [1].

وفي عصر صدر الإسلام احتاج المسلمون إلى الكتابة والتدوين على نطاق واسع لفهم الدين وحفاظة القرآن الكريم، ودونته طائفة من الكتاب وعرفوا بكتاب الوحي، فإنهم كانوا يكتبون الآية القرآنية، وكثر عدد الكتاب من بضعة عشر إلى نيف وأربعين، أغلبهم من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وظل القرآن الكريم مدونا على هذا النحو طوال عهد الدعوة الإسلامية في عهد النبي، وأحس عمر بن الخطاب بعده بضرورة تدوين القرآن مجتمعا لما استشهد عدد كبير من الصحابة في غزوة اليمامة في عهد الخليفة الأول أبي بكر وأوجس خيفة أن يتبدد القرآن لهذا السبب أو غيره، فظل زيد بن ثابت مشغولا في جمع القرآن مما كان مدونا عنده وعند غيره من الصحابة حتى جمعه في مصحف واحد، وقدمه إلى أبي بكر، ثم انتقل إلى عمر بن الخطاب الخليفة الثاني، واحتفظت حفصة بعد وفاة أبيها[2]، ولما نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

---

[1]- نفس المصدر.

[2]- يري الباحثون إن من أهم القضايا التي اتصلت بتاريخ الخط العربي قضية رقش الحروف أي استخدام نظام التنقيط للتميز بين حروفها المطابقة في الشكل ففي الأبجدية العربية مجموعات من الحروف ترسم بطريقة واحدة مثل الباء، والتاء، والثاء والجيم، والحاء، والخاء وعلى هذا النمط، وبدون نظام التنقيط، وكانت الكتابة العربية الجاهلية عارية من النكت الخالية من الشكل، وشأنها في ذلك شأن الأم النبطية التي اشتقت منها فرأي د. محمد حميد الله إن الرقش كان معروفا في عهد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وهو يعتمد على ما ترويه بعض المصادر القديمة أن عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قرقشته ، وفي رواية للسيوطي كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معاوية ارقش كتابك، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ص ٣٢، والدكتور محمد حميد الله، صنعة الكتابة في عهد الرسول صلى الله عليه

وأرضاه، وتفرق المسلمون في الأقطار المفتوحة منهم القراء الذين يحفظون القرآن الكريم، والعامة من المسلمين، وكانوا يسمعون القرآن منهم، فأهل الكوفة كانوا يأخذون عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأخذ الناس في دمشق، وحمص عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، فنشب الاختلاف بينهم، ورأي كل واحد منهم أن قراءته خير من قراءة غيره من القراء، حتى أدرك حذيفة بن اليمان رضي الله عنه خطر الاختلاف بين المسلمين وأبلغ ذلك إلى الخليفة، فأمر طائفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي مقدمتهم زيد بن ثابت بنسخ المصاحف التي لدى حفصة، وأن يضبطوا القراءة بما حفظه القراء [1].

وأن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه أمر بكتابة ست نسخ منها، احتفظ لنفسه منها بواحدة، وجعل واحدة لأهل المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وازكى التسليم، ووزع النسخ الباقية على كل من مكة المكرمة زادها الله تشريفا وتعظيما، والبصرة والكوفة، والشام [2]، كذلك تمت عملية تدوين القرآن الكريم في صورة نهائية، وقيل: إن تدوين القرآن على هذا النحو يعد أضخم وأدق عملية تدوين في صدر الإسلام وما أسرع أن انتشرت النسخ المأخوذة عن هذه النسخة الأم، وما أ كثر ما صار في أيدي الناس من هذه النسخ [3].

ونرى أن عملية التدوين لم تقتصر على تدوين القرآن فقط بل دونت المعاهدات والمراسلات وبعض الأمور الدينية في ذلك العصر، مثلا توجد في كتب

وسلم والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ص ٢٦، مجلة فكر وفن العدد الثالث الصادر في ١٩٦٤م.

[1]- المصدر السابق.

[2]- نفس المرجع.

[3]- ابن عبد ربه العقد الفريد ٤/٢١٥.

التاريخ المعاهدة التي أمر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بكتابتها على أثر هجرته إلى المدينة المنورة [1]، ونجد كثيرا من الرسائل التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القبائل المختلفة لدعوتهم إلى الإسلام أو عقد حلف معهم ضد قريش، وقد نقلت كتب ا لأمان، وكتب تقسيم الغنائم، وكتب الإقطاعات منه أيضا، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث رسائله إلى ملوك الدول المجاورة مثل المنذر بن ساوى، والمقوقس في مصر، والنجاشي في حبشة [2].

وظل الحديث الشريف يتناقل رواية لمدة طويلة من الزمن، والسبب العام الذي يعزي إليه تأخر تدوين الحديث هو كراهة أن يضاهي بكتاب الله غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواء، ولكن رأي الدكتور عز الدين [3]:

" هذا ينفى بالضرورة عملية تدوينه منذ وقت مبكر بل في حياة الرسول نفسه فعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأنس بن مالك رضي الله عنه، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وأبو هريرة رضي الله عنه، وسعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه، هؤلاء جميعا دونوا الأحاديث منذ وقت مبكر، وقفي التابعون على آثار الصحابة في هذا الشأن، ثم استمرت عملية تدوين الحديث في نموها الطبيعي حتى بلغت غاية اكتمالها في صورة، مدونات الأحاديث الكبيرة الجامعة، مثل صحيح الإمام البخاري ٢٥٦هـ، وصحيح الإمام مسلم توفي ٢٦١ هـ، وغيرهما".

يتضح بكل هذه الروايات أن عملية التدوين قد بدأت عند العرب منذ وقت مبكر، كانت معروفة في العصر الجاهلي وشاعت في عصر صدر الإسلام، وأن

---

[1]- د. عز الدين المصادر اللغوية الأدبية ٢٤٠.

[2]-ابن خلدون المقدمة في اللغة العربية ٢/٢٥.

[3]- المفصل في أحوال العرب قبل الإسلام ١٩٨.

حجمها لم يكن هينا، وما دامت تنمو وتتطور في العصور بعده حتى اكتمل تدوين المعارف العربية والإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وظل عدد كثير من المؤلفين والمصنفين مشغولا بهذا العمل، وكان لخلفاء الأمويين والعباسيين حظ وافر في تطور هذا الفن، فرتبت كتب الأدب، وجمعت دواوين الشعراء، وضبطت العلوم والمعارف، حتى انتهت حركة التدوين إلى أوسع نطاق في العصر العباسي، وكان لدى العرب وسائل التدوين المختلفة، واستعملوا الأشياء اللازمة للكتابة والتدوين مثل القلم والورق، والحبر، والصحيفة والمهارق، والألواح وغيرها، ولو رجعنا إلى دواوين شعرائهم لوجدناها حافلة بما ذكروا في ذلك [1].

وحصر هذه الأدوات اللازمة للكتابة والتدوين مهم لنا لتكوين رأي صحيح في مادة العرب في الكتابة والقراءة في العصر الجاهلي، ويتجلى من الروايات [2]:

"أن بعض الألفاظ الخاصة بالكتابة والقراءة هي معربة إن استعملت قبل الإسلام بزمن طويل عرب بعضها من اليونانية وعرب بعض آخر عن الفارسية أو السريانية أو القبطية وذلك بحسب الجهة التي ورد منها المعرب، ووجد سبيله إلى العربية من أدوات الكتابة المعروفة وأهمها القلم، وهي من أدوات الكتابة المعروفة منذ قديم إلى عصرنا الحاضر، والعرب من الأزمنة القديمة كانوا يعرفون قيمة القلم وفضله ويقولون القلم أحد اللسانين، وأشار ابن القيم إلى مثل ذلك حين قال:[3]

" تولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم".

---

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، ص ٣٣، طبع دار المعارف المصرية سنة ١٩٦٠م.

[2]- المرجع السابق.

[3]- ابن فارس الصاحبي في فقه اللغة ٢/٨٠.

وقد عدت قدرة الإنسان على الكتابة واستطاعته على البيان من أعظم منحة ما منه الله من قوات، وأهم وسيلة من وسائل التعليم والتعلم إذ قال [1]:

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُوْنَ ﴾[2].

وقال سبحانه ﴿ الَّذِيْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾[3].

العرب كانوا يخطون بالأقلام، وكانت تلك الأقلام مصنوعة من القصب بالعموم، وكلمة القلم أصله من الكلمات التي عن أصل يوناني وهي قلاموس ومعناها القصب، [4]، واستعمل العرب أنواعا أخرى من أقلام غير قلم القصب منها التي صنعت من الحديد ذات رؤوس من ألماس للكتابة على صفائح من الحجر، واستعملوا أقلام الرصاص ومعادن أخرى وقيل [5]، لفظة المزبر، هي مرادفة لمعنى القلم، وأصله من زبر، ومعناها كتب، والعرب كانوا يستعملون السكين لبرية الأقلام، ومن أدوات الكتابة القرطاس، وهي باليونانية **Khartis** أو **Chartes** [6]، ومعناها ما يكتب فيه، ويقابلها في اللغة العربية ورقة أو صحيفة أخذ العرب الجاهليون هذه الكلمة، منهم واستعملوها بشيء من التصريف قيل [7]:

" إن القدماء في مصر وفي حوض البحر المتوسط يكتبون على القراطيس وهي على صورة لغات تلف كالأسطوانة وتحفظ في غلاف...." .

---

[1]- الفهرست ص ١٥.
[2]- سورة القلم آية ١.
[3]- سورة العلق آية ٣.
[4]- العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٣٠.
[5]- نفس المصدر.
[6]- مصادر الشعر الجاهلي ص ٦٥. طبع دار المعارف المصرية.
[7]- الفن ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف ٢/٦٠.

ومن أدوات الكتابة "الرق" قال سبحانه وتعالى ﴿ وَالطُّوْرِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُوْرٍ (٢) ﴾، والرق شبه الورق، أو جلد رقيق أو هو الصحيفة البيضاء، واشتهرت في اليمن والحجاز بترقيق الجلود، ودباغته للاستعمال في أمور مختلفة، فكان يكتب فيه، والذي خط السطور على الرق، وكان العرب يسمونه "المرقش" و"الكاتب" [١]، وكانوا يكتبون في عسب النخل أيضا.

والعرب استعملوا "الحجارة" وهو أهم مواد الكتابة والحجارة، هي المورد الرئيسي الذي استخرج منها المؤرخون علمهم بتاريخ العرب في الجنوب، وفي أعالي الحجاز وغيرها من أماكن العرب نقش العرب الجاهليون أوامرهم وأحكامهم ورسائلهم عليها، حتى ذكروا بها المقامات التي نزلوا فيها، ويقولون لم يكتب في الحجارة "الوحي" والوحي عندهم الكتابة والخط، فقال زهير بن أبي سلمى [٢]، في بعض أبياته الشعرية:

كالوحي في الحجر المسيل المخلد

ومن أدوات الكتابة "المهارق" مفردها مهرق، وهو قماش من الحرير كان يطلى أو يسقى بالصمغ، ثم يصقل بالخرزة، ثم يستخدم للكتابة عليه، وقيل [٣]، هذه الكلمة "مهرق" فارسية في الأصل، فعربت وهي في الأصل الفارسي "مهر كرد" أي صقل به، وهكذا يدل الاسم نفسه على المصدر.

وكانت الألواح [٤]، أيضا من أدوات الكتابة المعروفة والشائعة التي استعملت منذ عصور قديمة لغرض الكتابة، مفردها اللوح" واللوح هو كل صحيفة عريضة

---

[١]- المصدر السابق.

[٢]- المقدمة لابن خلدون ص ٢٠، طبع دار المعارف المصرية سنة ١٩٨٠م.

[٣]- عيون الأخبار ٣/٣، طبع المكتبة التجارية بمكة المكرمة سنة ١٩٨٣م.

[٤]- دراسة في مصادر الأدب العربي ٨/٩٠، دار النهضة المصرية سنة ١٩٨٦م.

خشبا أو عظما، وكانت تصنع الألواح من أشياء مختلفة مثل الحجر والخشب، ومنها ألواح أكتاف الحيوانات التي استعملها العرب بعد نشرها وصقلها فحفظوا بها من أفكارهم، وآرائهم ووأحداثهم، وفي عصر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم أجمعين يستعملون الألواح لتقيد ما يريدون حفظه، من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته وغير ذلك، [١]، وكذلك كانت عظام الحيوان ولا سيما الإبل مادة الكتابة الميسورة وكان حصولها سهل لهم فكان الكتاب يحصلونها بغير ثمن، والروايات في بعض الأحاديث النبوية تدل إلى استعمالها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، حيث روى عن النبي صلى الله عليه وسلم [٢]أنه قال: ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتابا أو تضلون بعده".

وعندهم أشياء غير هذا استعملوها للخط والكتابة مثل القتب والعسب والكرناف، والقضم، والأدم، حيث ورد عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن في العسب والقضم والكرانيف".

والقتب هو الأكاف الصغير الذي كان يصنع من الخشب وعلى قدر سنام البعير[٣]، والعسب،[٤]، والكرناف [٥]، والروايات تحدثنا [٦]، أن كتاب الوحي استعملوها

---

[١]- المصادر اللغوية والأدبية ص ٢٥٠.

[٢]- تاريخ الأدب العربي العصرين الجاهلي والإسلامي ص ٨١.

[٣]- المصدر السابق.

[٤]- هو جريد النخل وكان في الحجاز كثيرا فاستعلمه العرب وكتاب الوحي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لتدوين الوحي وكتابته.

[٥]- هو أصول السعف الغلاظ العراض التي تلاصق الجذع ويشابه بهيئة الأكتاف.

[٦]- المصادر الأدبية واللغوية ص ١٣. طبع دار المعارف المصرية سنة ١٩٩٥م.

أيضا مادة لتدوين الوحي، والقضم [1]، أما الأدم فمفردها أديمة [2]، وكان الدباغون يدبغون الأهب ويصلحونها للكتابة، فإذا دبغ الإهاب صارا أديما، وكانت الأدم من مواد الكتابة الثمينة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وأوسعها استعمالا لتدوين المراسلات والعهود لرخص ثمنه من الورق المستورد من مصر أو من بلاد الشام، يخبرنا د. عز الدين [3]:

" أن أول مواد الكتاب التي كانت تنتج داخليا الأديم وهو الجلد الأحمر المدبوغ، وكان العرب يكتبون في أوائل الإسلام عليه كعهد الخبيرين من اليهود وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وغيرها من مصاحف القرآن".

ومنها الصحف مفردها صحيفة استعملها العرب لغرض الكتابة، وقد أضاف الله الصحف للتكريم والتطهير بقوله [4]:

﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِيْ صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوْعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤)﴾.

ومن أهم أدوات الكتابة "الورق" استعمله العرب إن كان استعماله محدودا عندهم في ذلك الزمان ولم يكن الورق معروفا لديهم في صورته المعروفة لنا، وكان يستورد من الصين عن طريق التجارة وقيل [5]، تجارة الورق نشطت فيما بعد وأنه كانت لها أسواق أو متاجر خاصة تباع فيها ويقوم على بيعها رجال يختصون

---

[1]- جمع قضيم وهو الجلد الأبيض يكتب فيه، وكانت الجلود تقطع، وتصقل حتى تصبح مادة صالحة للكتابة.

[2]- هي الجلود المدبوغة.

[3]- دارسة في مصادر الأدب ص ٣٩، الطبعة الرابعة ١٩٥٥م.

[4]- المفصل في أحوال العرب قبل الإسلام ٢/٩٥، طبع دار المروة بمكة المكرمة سنة ١٩٨٧م.

[5]- المرجع السابق.

به ويلقبون بالوراقين، ومن هذه الأسواق خرج عدد من أعلام الثقافة العربية، في مقدمتهم الجاحظ".

والعرب استعملوا أنواع الحبر الشائعة عند الشعوب الأخرى في ذلك العهد، لغرض الكتابة، ويبدو [1] أنه كان الفحم المسحوق أبسطها استعمالا عندهم، وكانوا يضيفون إليه الماء وقليلا من الضمغ، بعض الأحيان، كما استعلموا الحبر المصنوع من بعض المواد المستخرجة من زيوت بعض الأشجار أو من مسحوق عظام الحيوانات المحروقة أو بعض الأوراق المؤكدة بالحديد وبعض المعادن، وإن كلمة الحبر من المعربات، أما المداد فذكر علماء اللغة أنه مدد بالسراج من زيت ونحوه، ثم خص بالحبر وكان يصنع الحبر من مواد مختلفة فصنعه العبرانيون من سخام المصابيح، وتحدثنا أخبارهم أن القدماء منهم كانوا يستعملون الصور والنقوش، ويعنون بالنقوش تلوين الشيء بلونين أو بألوان مختلفة، ويسمونه النمنمة [2]، وكان الحبر يوضع ويحفظ في أداة يقال لها الدواة هذه الكلمة معروفة شائعة في عصرنا الحاضر، أو المحبرة وهي كأس ذات غطاء والغطاء يمنع الحبر من أن ينساب من المحبرة أو الدواة، وقيل [3] وبقي الكتاب والطلاب يستعملون تلك المحابر القديمة منهم رجال الدين، ومنهم من يعنون بالخط الجميل فاستمدوا بأقلام القصب والحبر القديم واستعلموا الآلات الحادة مثل السكين، وتلك الآلات الحادة كانت تستعمل في الكتابة على الخشب أو الحجر أو الفحم، فكل شيء ما يترك أثرا على شيء كانت مادة كتابة لإبلاغ رسالة أو لتقييد مآثرهم".

---

[1] - الكلام على القلم الحميري لابن النديم ص ١٥، ١٦. طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٩٨٠م.

[2] - مصادر الشعر الجاهلي ص ٩٥، طبع دار المعارف المصرية سنة ١٩٧٠م.

[3] - الحيوان للجاحظ ص ٢٣ طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٦م.

روى في الأغاني [1]، حفر قسبه بن كلثوم على رحل أبي الطمحان القيني رسالة دونها بالسكين وكذلك دون أحدهم خبر قاتله على راحلة قاتله بعد أن غافله وذكر فيها اسم قاتله".

وخلاصة القول إن الروايات المتقدمة عن شيوع الكتابة في العرب، واستخدامهم أدوات كثيرة، ويبدو بها أن الكتابة كانت معروفة عندهم، وكذلك تدل بعض الروايات إلى فن التدوين، ووجود بعض المدونات لديهم في تلك العصور القديمة حتى ظهور الإسلام، وأخذ الكتابة دعامة له، فأكد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أصحابه على تعلم الكتابة، وكذلك تطور النشاط القلمي في العصر الإسلامي والروايات والشواهد كلها تنفي بأقوال المستشرقين الذين يرجحون الرواية دون الكتابة والتدوين في العصر الجاهلي والإسلامي، والحقيقة هي إن صناعة الكتابة والتدوين كانت معروفة في العصرين الجاهلي والإسلامي، وحث القرآن الكريم على اتخاذ الكتابة في المعاملات بقوله سبحانه وتعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوْهُ وَلْيَكْتُبْ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَّكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِيْ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِيْ عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيْهاً أَوْ ضَعِيْفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُّمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [2]

---

[1]- بلا شير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني ص ١٢٠، دمشق ١٩٧٣م.

[2]- سورة البقرة آية ٢٨٢.

وشجع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه على تعلمها في/ أحاديث مختلفة، حيث دعا بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأجنبية، ففي البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه أتي النبي صلى الله عليه وسلم حيث مقدمه إلى المدينة فقيل [1]،

"هذا من بني النجار، وقد قرأ سبع عشر سورة من القرآن" فقرأت عليه فأعجبه ذلك وقال: تعلم كتاب يهود، فإني ما علي كتابي ففعلت".

[1]- المصدر السابق.